الفصل الثامن

الدويلات والسقوط

- إرهاصات السقوط.
- سقوط قرطبة.
- سقوط إشبيلية.

obeikandl.com

obeikandl.com

إرهاصات السقوط

بعد أن قتلت البقرة الخليفة يوسف المستنصر الذي لم يورث ولداً، أجمع المشايخ على تولية عبدالواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن، وكان في الستين من عمره، ويسميه المراكشي أبا محمد عبدالعزيز، وأمه حرة اسمها «مريم»، قال عنه صاحب المعجب وقد عرفه: «صوام قوام، مجتهد في دينه، شديد البصيرة في أمره، قوي العزيمة، شديد الشكيمة، لا تأخذه في الحق لومة لائم، أرطب الناس لساناً بذكر الله، وأتلاهم لكتاب الله» ما أن مرَّ شهران على ولايته حتى قام عليه في شرق الأندلس ابن أخيه عبدالله بن يعقوب المنصور.

ويقال: أنَّ ابن يوجان، وكان وزيراً يتصف بالمكر والدهاء، قد حذر عبدالله بن يعقوب المنصور من المبايعة حتى لا تخرج من عقب المنصور إلى غيره، واختلط الحابل بالنابل، وأضحى كل واحد من الموحدين يدعي أنَّه الأحق بالأمر، ودخل معهم غيرهم لتكون مأساة جديدة تضاف إلى مآسي الأندلس، وتفرقت الأندلس دويلات لكل دولة زعيم مثل البياسي، والعادل، والمأمون، وكل منهم يلجأ إلى القشتاليين للمساعدة.

وكان ملك قشتالة فرناندو الثالث الذي يستعينون به هو الذي تمت على يده نهاية الوجود الإسلامي في معظم مناطق الأندلس فيما بعد.

خرج فرناندو الثالث في عام ٦٢٣ هـ بجيشه الضخم متوجهاً إلى ما تحت يد البياسي من حصون، فهب البياسي خاضعاً متذللاً لفرناندو الثالث، ومعلناً طاعته الكاملة فاشترط عليه فرناندوالثالث تسليم الحصون ومساعدته بالمؤن ووضع ابنه رهينة عنده على أن يساعده في حروبه ضد منافسيه، وأحس البياسي بقوته من خلال دعم القشتاليين له فسار صوب إشبيلية بمساعدة القشتاليين وخرج إليهم الموحدون بقيادة واليها أبو العلى الملقب بالمأمون، فكانت معركة انهزم فيها الموحدون وفقدوا بعضاً من حصونهم، وأعاد المحاولة متجهاً إلى إشبيلية لانتزاعها من الموحدين لكنه مني بهزيمة ساحقة استرجع على أثرها الموحدون عدداً من الحصون، وهرب البياسي إلى قرطبة فلم يأمن أهل قرطبة غائلته وخشوا أن يسلم قرطبة للقشتاليين فثاروا عليه وقتلوه وهو

في الستين من عمره، بعد أن مهد لمأساة الأندلس وخروج المسلمين منها، فكان رمزاً من رموز الخيانة التي جرت على المسلمين الدمار والهلاك في تلك الحقبة وما بعدها.

وتركت مناطق الأندلس الأخرى لمستقبلها وبقيت حاميات صغيرة حول بعض المدن، وكان هناك رجل من أرومة ملكية هو محمد بن يوسف بن هود الجذامي، وكان جندياً من متوسطي الجند تعاون مع شخص اسمه الغشتي كان من الذين يقومون بهجمات مباغتة على النصارى، كما أنه أحياناً يقوم بأخذ ما أمكن أخذه من أغنام أو مؤن المسلمين. قال ابن عذارى: «وتحت يده جماعة كبيرة من أراذل الناس السفلة الخساس، وصاروا له أعواناً وجساساً» وأورد بعض الخرافات التي ربطها بالمنجمين وتوقعاتهم وهو هراء رسخ في عقول بعض العامة والخاصة فالغيب عند الله وحده.

واجتمع الإثنان واتفقا على التعاون وتمت المناداة لابن هود ورفع الراية العباسية وتوشح بالسواد ليضع له صفة شرعية، وانضم إليه عدد كثير فدخل مرسية بعد أن تفاهم مع قاضيها علي بن محمد القسطل، وكان شعاره الخلاص من الموحدين وردع النصارى وإحياء الشريعة، وعندما علم المأمون الموحدي بالأمر وهو في إشبيلية سار بعساكره لمحاربة ابن هود فانتصر المأمون الموحدي انتصاراً ساحقاً، لكنه لم يستطع الإمساك بابن هود أو إزاحته عن حكمه بلنسية، فتهافت الشعراء إليه مادحين، فقال ابن عائشة:

فؤادي بأمداح الخليفة هيمان ... ففيه اعتزاز والتغزل إذعان
قصدت أمير المؤمنين بمدحه ... فأمداحه للمرء يمن وإيمان
فطاعته فرض على الناس كلهم ... وعصيانه لا شك لله عصيان

والبيت الأخير فيه من التزلف والملق، ما لا يقبله فتى ذوقا أو خلقا أو دينا.

وفي بلنسية قام أبوزيد البياسي حاكمها بمحاربة ابن هود الذي وضع يده على مرسية لكنه انهزم شر هزيمة فاجتمع أهل بلنسية على أحد زعمائهم السابقين وهو زيان بن مردنيش، فهرب أبوزيد البياسي إلى أحد الحصون ومنها هرب والتحق بالبرتغاليين، وأبو زيد البياسي هذا هو أخ السيء الذكر عبدالله البياسي.

قال صاحب كتاب «البيان المُغرب»: «ومن الاتفاق الغريب أنَّ نصرانيين وصلا قبل ذلك بأمد قريب -أعني السيد أبي زيد- فقالا له: تراك تصل إليها وتدخل في ديننا فكره ما قالاه، وقتلهما صبراً فلم يكن بعد ذلك إلا قليلاً ولحق بالنصارى مرتداً وفارق أهله وولده، واستوطن بينهم من سقط من أعينهم فرفضوه واطرحوه ولم يعش بعد ذلك إلا يسيراً ومات».

ويقال: إنَّ ابن الأبار قد صاحبه إلى هناك، وعندما وجد أنَّ أبا زيد مستسلماً للبرتغاليين وأنَّه يعزم على اعتناق دينهم عاد إلى بلنسية وارتبط بالحاكم الجديد.

وهكذا اعتنق أبوزيد النصرانية وهو سليل عبدالمؤمن الذي قام بحركته الدينية المبنية أساساً على تثبيت العقيدة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان دافعه السلطة ولا شيء سواها.

خشي الموحدون بقيادة أبي العلي والي إشبيلية نهاية وجودهم في الأندلس، حيث لم يبق سوى إشبيلية وقرطبة وبعض المدن الصغيرة والحصون القليلة، فوافقوا على صلح يتم بموجبه دفع الموحدين للقشتاليين مبلغاً ضخماً من المال.

ومع أنَّ أبا العلي والي إشبيلية وقرطبة يترقب سطوة فرناندو الثالث عليه، فقد أقدم على أمر بغيض وهو الدعوة لنفسه بالخلافة وتلقب بالمأمون ونقض بيعته لأخيه العادل، وهذا ما لا يقبله عقل ولا دين، وأرسل أعوانه إلى مراكش لخلع أخيه فتم له ما أراد فدخلوا على أخيه وقتلوه، ونادوا بأبي العلي المأمون خليفة، ثم نقضوا الأمر وعينوا يحي ابن محمد الناصر وتلقب بالمعتصم، فأصبحت القيادة ألعوبة بيد رجال القصر بتحريض من الموحدين أنفسهم.

غضب أبو العلي المأمون مما فعله المراكشيون فأسَّر في نفسه الانتقام، فاتصل بفرناندو الثالث وطلب منه العون على مركز الخلافة (مراكش)، فاشترط فرناندو الثالث شروطاً منها: أن يسلمهم عَشْرَ حصون حدودية، وأن يبني في مراكش كنيسة للنصارى، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه، وأنَّ من تنصَّر من المسلمين يقبل تنصره، فوافق المأمون على الشروط.

سار المأمون بجيشه إلى مراكش مع خمسمائة فارس قدمها فرناندو نظير شروطه المهينة، ومنذ اللقاء الأول فرَّ العادل من مراكش، وقدم المشايخ الولاء للوافد الجديد مع القشتاليين، وأعلن العفو حتى إذا اجتمع كبار الذين بايعوا لأخيه العادل أحضر القاضي فقال: «ما تقول يافقيه في قوم بايعوا شخصاً ثم نكثوا عليه وخلعوه، ثم قتلوه، ثم بايعوا شخصاً آخر فنكثوا عليه وقتلوه، ثم بعثوا ببيعتهم هذه إلي ثم نكثوا أيضاً علي» فقال القاضي: «وجب عليهم القتل» وتلا الآية «ومن نكث فإنما ينكث على نفسه»، فأمر بقتلهم جميعاً وهم نحو مائة من خيار الناس ودفنوا في حفرة، أما بقية من قتل وعددهم يبلغ نحو أربعة آلاف فقد علقت رؤوسهم على سور مراكش، وكان القيظ فشكا الناس روائحها للمأمون فقال: إنَّ هامات المحاربين هي إحراز لهم وروائحها عطرة عند المحبين منتنة عند المبغضين».

إنه يعيش في قصره وروائح العطور من حوله، أمَّا روائح الرؤوس المنتنة فعلى سكان مراكش المجاورين لتلك الرؤوس تحملها!!!

مجموعة من المآسي يتربع على عرشها المأمون الموحدي لم يسبقه إليها غيره، قيامه على أخيه، وتسليمه الحصون، والموافقة على الشروط، وقتله الناس، والمسير بالقشتاليين إلى مراكش لأول مرة، فبزَّ من سبقه في الخيانة واللؤم وسوء السريرة وقلة الإيمان.

لكن عصره لم يخل من المحاسن مثل تغيير الفكر الموحدي من خلال منع الدعاء بفكرة المهدي، ويقال: إنه صعد المنبر فلعن المهدي وقال: «لا تدعوه بالمعصوم، وادعوه بالغوي المذموم، إنه لا مهدي إلا عيسى». كما أنه حث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونبذ البدع.

وسار المأمون إلى سبتة فانتهز أخوه يحيى «العادل» الفرصة وباغت مراكش، فلم يجد مقاومة تذكر، فدخل القصر، وحاز الأموال، وهدم الكنيسة التي بناها المأمون وفاءً بشرط فرناندو الثالث، وقتل من وجد من النصارى، وعندما علم المأمون الموحدي بالأمر، هرع مسرعاً تاركاً حصار سبتة، وحلف أن يستبيح مراكش للقشتاليين، فمات في الطريق فجأة بعد أن أساء ولم يحسن، وهدم ولم يبن، وأفسد ولم يصلح، نستثني من ذلك وقفة للقول بعصمة المهدي ابن تومرت.

كتمت زوجته الرومية وفاته حتى تمت البيعة لابنها الرشيد، وكان في الرابعة عشرة من عمره، وواصل الجيش مسيره إلى مراكش وحاصرها ففتحت على يد جنده دون قتال.

وبعد دخول الرشيد مراكش اشترط بعض قادة الموحدين أن يعاد ذكر اسم الإمام المهدي في الخطبة، وإعادة الدعاء له بعد الصلاة، والنداء على الصلاة كما كان ينادى عليها منذ عهد تومرت وعبدالمؤمن مؤسس العقيدة الموحدية، ومن دعواتهم للصلاة والنداء عليها بشيء يسمونه تصاليت الإسلام وهي إقامة الصلوات مثل «سودوت ناردي وأصبح ولله الحمد».

عاش الموحدون نحو عشر سنوات في ظل حكم الخليفة الرشيد، تخللتها الكثير من الحوادث، وقبل وفاته بأشهر قتل أشهر وزرائه وهو الموناني، كما قتل أبو حفص أحد قادته بسبب كتاب (خطاب) فيه شيء من الأماني وربما الدعابة.

فقد ولىَّ الخليفة الرشيد أبا حفص ولاية عظيمة، وأرسله مع كثير من الجند إلى هسكورة، وعندما كان يجهز نفسه للرحيل كتب الوزير الموناني كتاباً إلى أبي حفص يهنئه على هذه الثقة، وقال في خطابه – ولعله مداعباً –: «وإنها – إن شاء الله – ابتداءً لخلافة» فأخطأ المرسول، ودفعها إلى القائد أبي المسك قائد الرشيد، فسار أبو المسك بدفعها للخليفة الرشيد، غير أن الرشيد لم ينظر إليها وتركها جانباً ظناً منه أنه في أمر خاص لأبي المسك الذي كثيراً ما يشغله بطلباته، وفي هذ الأثناء، سأل الموناني مرسوله إذا ما دفع بالتهنئة على خادم أبي حفص، فقال بل أعطيتها لأبي المسك، فارتجف وخشي العاقبة، فأرسل خطاباً مستعجلاً للخليفة يعتذر عما بدر منه، وعندما قرأ الخليفة خطاب الاعتذار طلب الخطاب الأصلي، وعندما قرأه أمر بقتل الموناني وأبي حفص في الحال، فتم ذلك، وبعد هذه الحادثة بشهور توفي الخليفة الرشيد.

وقد ذكر ابن عذارى في كتابه «البيان المُغرب» فقال:

«وذلك أنه لما استقامت الأحوال للرشيد بعد ما جدد دولة الموحدين، ووصله منهم القريب والبعيد، وأجلى جميع الخلط إلى السوس، وتهدنت النفوس، وتمهدت البلاد، واشتغل الناس بمراكش في الرياضات بالنزاهات، استعمل الرشيد سكناه برياض تدفق،

وبنى حوله سقائف للموحدين والمشتغلين والوقافين والرقاب والحجاب، وأمر ببناء الديار هنالك للمقربين من خدمته وأرباب دولته، فلما قدر الله بحين وفاته وانقضاء مدة حياته، دخل في زورق في الصهريج في الرياض الكبير المذكور مع بعض جواريه برسم التنزه، فانقلب بهم الزورق، فقيل: أنه مات من حينه، وقيل: إنه طلع منه محموماً فنقل إلى قصره، وذلك في يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة المؤرخة، وبعد ثلاثة أيام توفي، وأخبرني أيضاً بوفاته أبو عمران ابن تيجا، قال: أخبرني أبو وكيل ميمون أنه خرج برسم التفريج في ليلة باردة، فأصابته فيها نزلة عظيمة، وكان على راحة معتماً بعمامته، فلما أزالها حم من حينه، فأخرج من الزورق، ورفع إلى قصره، فانقضى أمده في يوم الجمعة العشر من جمادى الأولى من سنة أربعين المذكورة».

بعد وفاة الخليفة الرشيد عزم بعض رجال الدولة تولية ابنه الصغير، فكثر الحديث في ذلك فقال أحدهم: قد أعيينا من تقديم الصبيان علينا، يعنون يوسف المستنصر ويحيى أخاه والرشيد، وكان علي بن إدريس بن المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن أخ الرشيد حاضراً ويرى أنه الأحق بها فقال: لئن لم يبرموا هذا الأمر وإلا أبرموه بغير اختيارهم، فأقعدوه على كرسي الحكم فتم له ما أراد، وتسمى بالسعيد.

وبعد توليه واستتباب الأمر له، أمر ببعض الموحدين الكارهين لتوليه الحكم فقتلهم، وحبس أمَّ الرشيد وأغرمها مالاً، وضرب شيخ العبيد في أيام الرشيد نحو ألف سوط.

وقد كان شديداً مهاباً، قوي الشكيمة، حاول إعادة الدولة الموحدية إلى سالف مجدها، فحارب بني مرين ألَدَّ أعدائه الذين سبق لهم السيطرة على معظم البلاد، فانسحبوا عندما قدم لمحاربتهم، كما عزم على استرداد ما ضاع لهم من سلطان أفريقية، وهو في الطريق إلى ذلك طلب من يضمر بن زيان والي تلمسان القدوم إليه وتقديم الطاعة، فقبل الطاعة واعتذر عن القدوم، وأرسل وزيره ابن عبدون فأبى وأصر على قدوم يضمر، فأبى يضمر النزول والتجأ إلى قلعة حصينة تتخللها بعض الشعاب، فسار الخليفة السعيد قاصداً القلعة فخرج عليه كمين من بني عبدالواد، فقتل وزيره ثم قتل الخليفة السعيد، واسم قاتله يوسف بن عبدالمؤمن الشيطان، وهكذا توفي الخليفة السعيد بعد خمس سنوات من الحكم على يد الشيطان.

فكانت مأساة بعد أمل، سببها سوء التقدير، ولا راد لأمر الله.

أما في الأندلس فقد استطاع ابن هود إخضاع بعض الحصون، لكن ما لبث أن خرج ملك ليون عازماً غزو بلاد الإسلام الأندلسية مبتدئا بماردة، وعندما علم ابن هود بذلك جمع ما يستطيعه من رجال وعتاد، فتقابل الجيشان فكانت الهزيمة على ابن هود فاحتل ملك ليون ماردة وبعد ذلك بقليل احتلوا مدينة بطليموس.

أما ملك قشتالة فقد جمع جموعه وأقبل لقتال ابن هود، وحاصر مدينة «أبدة» ثم دخلها بعد حصار طويل، وعقد ابن هود مضطراً هدنة مع ملك قشتالة نظير ثلاثمائة وستين ألف دينار.

وأحاطت بابن هود التحديات من كل جانب، فقد قام عليه محمد بن يوسف من نسل سعد بن عبادة الصحابي الجليل، وكان يلقب بابن الأحمر، وتمكن من الاستيلاء على جيان ومنها انطلق للاستيلاء على بعض الحصون والقلاع، فخاف ابن هود على مركزه، وانفراط عقد مملكته التي بدأ في بنائها من شتات دولة الموحدين فهب لقتال ابن الأحمر، وحشد كل منهما ما استطاع من قوة، وتفاهم ابن الأحمر مع الباجي والي قرطبة وزَوَّجَه ابنته، ونشبت الحرب فانهزم ابن هود وعاد أدراجه، أما ابن الأحمر فقد سار مع حليفه والي إشبيلية وكان ينوي الغدر بحليفه، فأرسل إليه من قتله واستولى على إشبيلية إلا أنَّ بقاءه فيها لم يدم سوى شهر واحد حيث مال عليه قاطنوها، فأخرجوه منها عنوة ثم عادوا ودانو بالولاء لابن هود، وبدا لابن هود وابن الأحمر الصلح والتحالف، فتم ذلك.

خرج ملك قشتالة مرة أخرى، وهدم، وخَرَّب، وأحرق، حتى وصل جيان، وتفاوض مع ابن هود، فوافق ابن هود على التنازل عن بعض الحصون ودفع مبالغ طائلة من المال.

وعلينا أن نتذكر أنَّ الأندلس الإسلامية في تلك الفترة كان يحيط بها ثلاث ممالك نصرانية، أراجون من الشرق، وقشتالة من الوسط، وليون من الغرب، وكانت هذه الممالك النصرانية تهاجم دويلات الأندلس الإسلامية التي لا تفتأ تتحارب فيما بينها، ويستنجد بعضها بإحدى تلك الممالك النصرانية المجاورة للذود عنها من دويلة إسلامية أخرى، أو يتم عقد هدنة مقابل مبلغ كبير من المال يتم جمعه من حُرِّ مال الناس، ليتم دفعه لعدوهم نظير بقاء زعيم هذه الدويلة أو تلك على كرسي الحكم.

إنَّها مأساة الأندلس الحقيقية.

obeikandl.com

سقوط قرطبة

سقطت بأيسر السبل عاصمة المسلمين في الأندلس، وانهارت دون أن يدافع عنها أحد، ولم يسمع نداءها مجيب، قال ابن عذارى: «وفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة كان دخول النصارى مدينة قرطبة، ونزل أذفونش أخزاه الله بعساكره الذميمة على مدينة قرطبة فحاصرها، وضيق عليها، وأقبلت نحوه الحشود من البلاد القاصية والدانية إلى أن ملكها وأخرج المسلمين منها، وهذا من أَجَلِّ مصاب وأعظمه، ولكن الرضى بما قدره الله وأحكم، إذ هي أم المدائن، وقرة عين الوارد والقاطن، فلقد حلَّ بالأندلس من الروم ما يلين له القاسي، وتنهد له الجبال الرواسي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكان أول ما أخذ العدو قصمه الله شرقيها، ثم لازمها حتى استولى عليها في الثالث والعشرين لشوال من السنة، فكان بين الحادث في طليطلة والحادث في قرطبة مائة وخمسون سنة».

علينا أن نتذكر أنَّ ابن هود كان في مرسية ولديه جيش كبير هرع به لنجدة المدينة، وعندما وصل قريباً منها بقي دون أن يلتحم مع الجيش القشتالي وعاد أدراجه لسبب خفي لا أحد يعلمه.

وبعد سقوط قرطبة مات ابن هود على يد عامله ابن الرميمي الوالي من قبله على مدينة ألمرية، فكانت مدة حكمه تسعة أعوام وثلاثة أشهر وينقل لنا ابن عذارى قصة مقتله فيقول: «إنه في ابتداء أمره عاهد زوجته ألا يتخذ عليها امرأة طول عمره، فلما ملك البلاد الأندلسية وعظم فيها أمره، حصلت بيده رومية من بنات زعمائهم ومن أجمل نسائهم، وكان قد عاهد زوجته ألا يتزوج عليها ولا يسوق رومية إليها، فأودعها (أي الرومية) عند ابن الرميمي صاحب المرية، فكانت له في ذلك المنية، فاستحسن ابن الرميمي الرومية فمد يده إليها، وضبطها لنفسه، ودبر وجه الحيلة في الخلاص من ذلك برأسه.

ثم إنّ ابن هود سمع بخبر روميته، فاستعجل حركته إلى ألمرية على عادته لينظر منها في أمور القائم عليه بغرناطة وهو الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر لأنه كان قد ملكها في هذه السنة.

ولما وصل ابن هود إلى المرية بمحلته نزل خارجها فدبر ابن الرميمي في أمره، وعمل على أن يحلف عليه ليدخل معه إلى داره ليقوم بحقه فيها خير قيام، وليخلو برومية بعض أيام، فدخل ابن هود معه وعرَّفه أنَّ الرومية في الحمام، ولما جنَّ الظلام عليه أدخل أربعة من الرجال فأطبقوا عليه، وبقي أمره في تلك الليلة خفياً».

ترى، هل ضحى ابن هود بقرطبة وتراجع عن الدفاع عنها من أجل رومية، حيث قتل بمخدة خنق بها من قبل أربعة رجال من رجالات صديقه ابن الرميمي؟

خلا الجو لابن الأحمر الذي استولى على غرناطة، ثم سار إلى المرية فهُزِم ابن الرميمي فحازها، لكنه كان يرتعش خوفاً من ملك قشتالة الذي يتوقع مهاجمته له في أي وقت وكان بينهما عهد، لكنه يخشى ألا يدوم، وجدد معاهدة السلم على أن يتنازل عن كثير من المدن والحصون.

وبهذا تهاوت الأندلس شيئاً فشيئاً ابتداءً من طليطلة ومروراً بقرطبة ثم ما تلاها من مدن أخرى في مدة لم تتجاوز ثلاثين عاماً، فأخذ الشعراء يتباكون والكتاب يذرفون الدموع، ومن تلك القصائد الرائعة قصيدة تلخص لنا مأساة الأندلس، وهي طويلة لكنها تستحق أن نوردها لما فيها من عبر لكل معتبر، قال الرندي:

لكل شيء إذا ما تمَّ نُقصان ... فلا يُغرَّ بطِيبِ العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دُوَلٌ ... من سرَّه زمنٌ ساءته أزْمان

وهذه الدار لا تُبقي على أحد ... ولا يدوم على حالٍ لها شان

يمزق الدَّهر حتماً كل سابغة ... إذا نَبَتْ مشرفيات وخرصان

وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يَزَن والغمد غِمدان

أين الملوك ذوُو التِّيجان من يَمَنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجان

وأين ما شاده شدَّاد في إرمٍ ... وأين ما ساسه في الفُرس ساسان

وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عادٌ وشدَّادٌ وقحطان

أتى على الكل أمر لا مردَّ له ... حتى قَضَوْا فكأنَّ القومَ ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومن مَلك ... كما حكى عن خيال الطَّيف وَسْنَان

دار الزمان على دَارَا وقاتله ... وأُمُّ كِسْرَى فما آواه إيوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوماً ولا مَلَكَ الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسَرَّات وأحزان
وللحوادث سُلوان يُسهِّلها ... وما لما حلَّ بالإسلام سُلْوَان
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوى له أُحُدٌ وانهدَّ ثَهلان
أصابها العين في الإسلام فامتحنت ... حتى خَلَتْ منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أمْ أين جَيَان
وأين قرطبة دار العلوم، فكم ... من عالمٍ قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نُزه ... ونهرها العذب فيَّاضٌ وملآن
قواعد كنَّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفيَّة البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلْف هَيْمَان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقْفَرَت ولها بالكُفر عُمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ... ما فيهنَّ إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر تَرثي وهيَ عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سِنَة فالدَّهرُ يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه ... أبعد حمص تَغُرُّ المرءَ أوطان
تلك المصيبة أنست ما تَقَدَّمها ... وما لها مع طول الدَّهر نسيان
يا راكبين عِتاقَ الخيل ضامرةً ... كأنها في مجال السَّبق عُقبان
وحاملين سيوف الهند مُرهفةً ... كأنها في ظلام النَّقع نيران
وراتعين وراء البحر في دَعَةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهْتزُّ إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها هممٌ ... أما على الخير أنصار وأعوان

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحَالَ حالُهم كُفرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكُفر عُبدان
فلو تراهم حَيَارَى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذلِّ ألوان
ولو رأيت بُكاهُم عند بيعهم ... لَهَالَكَ الأمر واسْتَهْوَتْكَ أحزان
يا ربَّ أمٍّ وطفل حِيلَ بينَهما ... كما تُفرقَّ أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنمَّا هي ياقوت ومرجانة
يقودها العِلجُ للمكروه مُكرهَةً ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

وعندما رأى ملك أراجون أن ملك قشتالة قد استولى على قرطبة دون عوائق، قرر السير للاستيلاء على بلنسية، لأنها تقع ضمن الأراضي المستهدفة للاستيلاء والخاصة به طبقاً لاتفاق مسبق مع ملك قشتالة.

وحاصرها وهو يعلم أنَّ زيَّان واليها ليس لديه من العدد والعدة ما يؤهله للذوذ عنها وأرسل زيَّان رسله طالباً النجدة، ولكن ما عساه أن يجد، فالموحدون هدموا ما بناه أجدادهم من خلال تنافسهم المحموم على الحكم، فليس لديه ممن يمكن الاستناد إليه في النصرة سوى بني حفص في تونس، حيث أرسل ابن الأبار مرسولاً إلى هناك، فاستصرخ حاكمها أبا زكرياء الحفصي تاركا العنان لشعره يعبر عما في قلبه فقال:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً ... إنَّ السبيل إلى منجاتها درسا
وهبْ لها منْ عزيزِ النَّصر ما الْتَمَسَت ... فلم يزل منك عزُّ النَّصر مُلتمسا
وحاش مما تُعانيه حَشَاشَتها ... فطالما ذَاقَتْ البَلْوَى صباحَ مسا

وهي قصيدة طويلة مشهورة.

وفي نهاية الأمر أدرك أهل بلنسية أنه لابد من التسليم، فقال ابن الأبار عن ذلك اليوم وقد حضر التسليم:

«وفي هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامي من المدينة، وهو يومئذ أميرها، في أهل بيته ووجوه الطلبة والجند، وأقبل الطاغية وقد تزيا بأحسن

زي في عظمـاء قومه من حيث نزل بالرصـافة أول هذه المنازلـة، فتلاقيا بالولحة، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سلماً لعشرين يوماً، ينتقل أهلها أثناءها بأموالهم وأسبابهم وحضرت ذلك كله، وتوليت العقد عن أبي جميل في ذلك، وابتدىء بضعفة الناس فسيروا في البحر إلى نواحي دانية، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً صبيحة يوم الجمعه السابع والعشـرين من صـفر المذكور، كان خروج أبي جميل بأهله من القصـر في طائفة يسـيرة أقامت معه، وعند ذلك استولى عليها الروم أحانهم الله».

أمَّـا مرسـية فبعدمـا علم أحمد بن هـود واليها بما حدث لبلنسـية وغيرهـا، رأى أنَّ مصيرها مصـير غيرها، فأرسل وفداً إلى ولي عهد القشتاليين واسمه ألفونسو، فدخلها صـلحاً على أن يبقى ابن هود والياً عليها تحت لواء وطاعة ملك قشـتالة، وهكذا سـقطت حبات العقد ولم يبق إلا القليل جداً.

obeikandl.com

واجهة خارجية لمسجد قرطبة

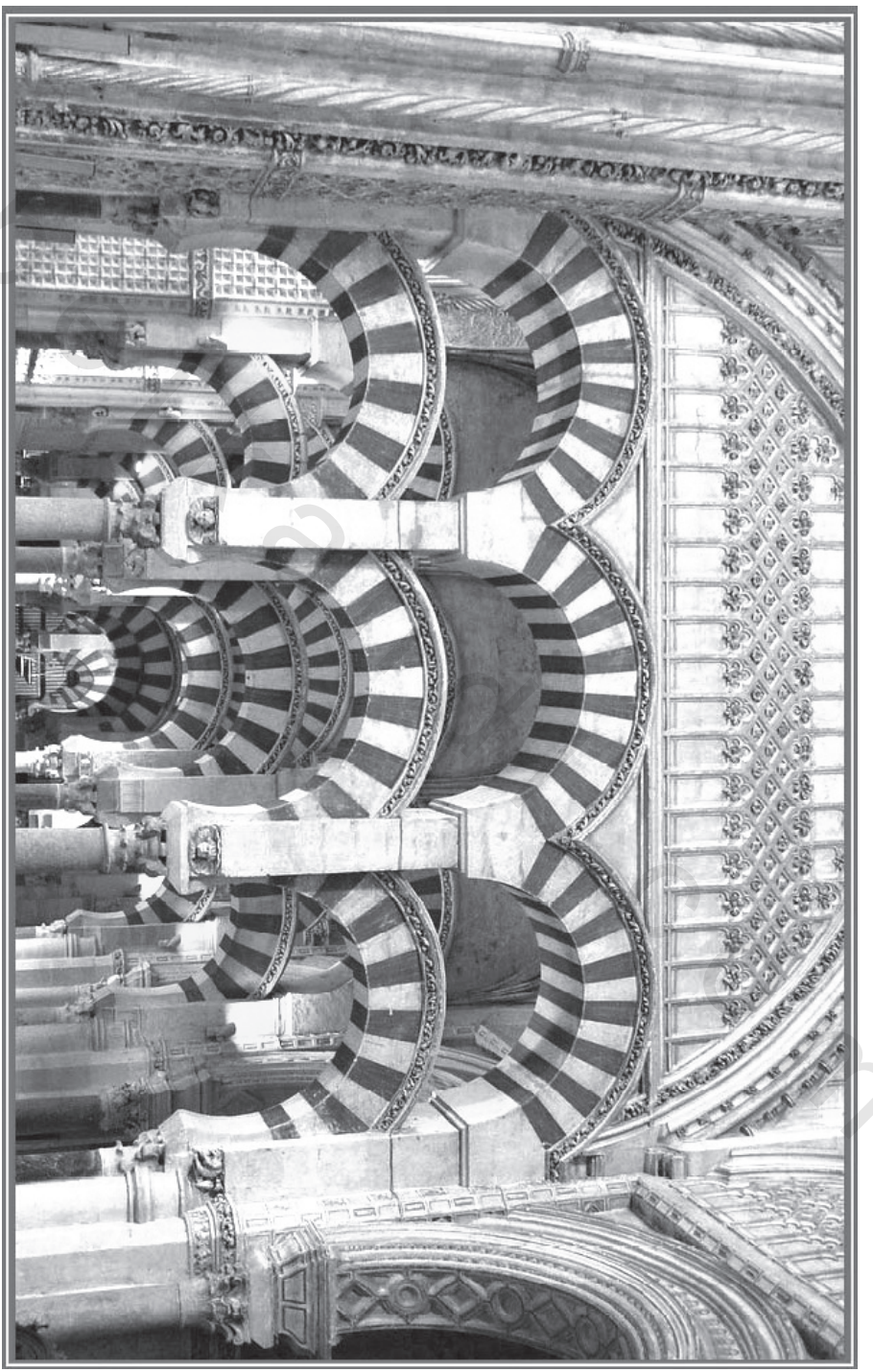

مسجد قرطبة من الداخل

obeikandl.com

سقوط إشبيلية

في خضم الأحداث المتوالية على الأندلس بعد خروج أبي العلي المأمون الموحدي، كانت أشبيلية تحكم نفسها ذاتياً وتقدم الولاء هنا وهناك طبقاً لما تقتضيه الظروف، فبعد مغادرة المأمون إلى مراكش بعد أن نصَّب نفسه خليفة وقوي نفوذ ابن هود في الأندلس، فقدم أهلها يد الطاعة لابن هود، وبعد ذلك بقليل نكثوا العهد وعينوا قاضي إشبيلية أبو مروان الباجي، ثم دبر ابن الأحمر مكيدة لقتل الباجي فقتله، وبعد موت قاضيهم أعادوا الولاء لابن هود، وبعد موت ابن هود أعادوا الولاء للموحدين، ثم رأوا أنَّ من الأصلح لهم موالاة أبي زكريا يحيى الحفصي في تونس بعد أن رأوا ضعف الدولة الموحدية في مراكش.

قال ابن عذارى: «ولما قفل وفد إشبيلية من تونس بعدما بايعوا الأمير أبا زكريا، وجه معهم مشتغلاً وعاملاً وبعض رجاله فوصلوا بجملة من القطائع إلى مدينة إشبيلية فاشتغلوا بما لا يصلح من الفساد، وجرت لهم فيها أمور شنيعات لايمكن ذكرها فأخرجهم أهل إشبيلية وقتلوا ابن الجد الذي كان سبباً في وصولهم إليهم، ولما قتل ابن الجد -رحمه الله- كان قتله سبباً في نزول النصارى مدينة إشبيلية لأن أدفونتش اللعين كان مصافياً لابن الجد ومصالحاً له على المسلمين، فلما مات فسد الصلح بينهم فحاصروهم».

عزم فرناندو الثالث ملك قشتالة على إسقاط إشبيلية، وكان لابد له من التجهيز، فأخذ إذناً من البابا بأن يدفع ثلث ما يقدم للكنيسة من أموال لدفع تكاليف تجهيز الحرب، كما أنه اتصل بملك ليون ليناصره طبقاً لاتفاقية مبرمة بينهما، وسار في جيش ضخم صوب إشبيلية، وأخذ كعادته في نسف ما يقع في طريقه، حتى وصل إلى فرمونة فانضم إليه ابن الأحمر في خمسمائة فارس طبقاً للاتفاقية المبرمة بينهما، وسار الجيش الضخم فكان ابن الأحمر دليلهم وواستطتهم لإقناع قادة الحصون بالعدول عن المقاومة والتفاوض على شروط يرتضيها الطرفان بدلاً من نهاية معلومة سلفاً، والحقيقة أنه ليس تفاوضاً وإنما استسلام بشروط دأب ملك قشتالة بعرضها على الحصون والمدن المستسلمة، منها: تسليم الحصن، ومعظم الحصون التابعة، ودفع الجزية، والطاعة لملك قشتالة، وحضور الاجتماع السنوي، والمساعدة في حالة الطلب.

تهاوت الحصون تباعاً حتى أضحت إشبيلية سالكة للحصار، فحاصرها مدة خمسة عشر شهراً ذاق أهلها الأمرين خلال الحصار، ورفعوا أصواتهم مستنصرين بأهلهم

وإخوانهم في مراكش، لكن أنَّى لهم في ذلك وهم مشغولون بالاقتتال فيما بينهم. وقد أطلق الشعراء لألسنتهم العنان استنجاداً بإخوانهم دون جدوى، وها هي قصيدة هارون ابن هارون المشهورة تصل إلى آذان الزعماء الموحدين والحفصيين وغيرهم دون جدوى.

فذهبت أشبيلية وبقيت القصيدة ومطلعها:

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى ... لم يرع فيك الردى إلاَّ ولا ذمما
جرت عليك يد للدهر ظالمة ... لا يعدل الدهر في شيء اذا حكما
ما كنت أحسب أنَّ الحادثات إذا ... همت بك السوء لا تلقي بك السلما
ولا توهمت ذاك الحسن يطمسه ... ريب الزمان ويكسو نوره الظلما
قد كان حسنك فتان الشباب فمذ ... أصَبْتِ عوَّضْتِ منه القُبْحَ والهرما
ياجنة زحزحتنا عن زخارفها ... ذنوبنا فلزمنا البث والندما
ياسائلي عن مصاب المسلمين بها ... اصخ لتسمع امراً يورث الصمما
لما تفرقت الأهواء واضطرمت ... نار البغاة فقامت للردى علما
ونوزع الأمر أهلوه وقام به ... من لم يجد قدماً فيه ولا قدما
ثارت حفائظ للتثليث فابتدروا ... وأيقظوا من سنات الغفلة الهمما
وأنشروا ميت الأحقاد بينهمُ ... ولو أطاقوا لعمري أنشروا الرمما
ويمموا حمص في جمع يضيق به ... ذرع الفضاء فسوى الوهد والاكما
فالبحر بالمنشآت ارتج من ذعر ... والبر بالمرهفات ارتاع فاكتتما
واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم ... جسر من الفلك لا تشكو به السأما
فكم أسارى غدت في القيد موثقة ... تشكو من الذُّل أقداماً لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفاً ... عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
يدعوا الوليد أباه وهو في شغل ... عن الجواب بدمع سال وانسجما
فكم ترى والهاً فيهم ووالهة ... لا يرجع الطرف إن حاورته الكلما
لهفي عليهم وما لهفي بمغنيه ... عمن تبدل بعد النعمة النقما
إنا إلى الله قد حلَّ المصاب وما ... من حيلة في الذي أمضى وما حتما
في كل حين ترى صرعى مجدلة ... وآخرين أسارى خطبهم عظما

obeikandl.com

وقال ابن عذارى في صفة حصار إشبيلية:

«أحدقت النصارى بمدينة إشبيلية، وحاصروهم براً وبحراً، وأذاقوا أهلها شراً، وكان نزولهم عليها ووصول جموعهم إليها في شهر جمادى الأولى من العام المذكور، فاشتد في هذه السنة حصارها، وتملأت منهم أنظارها وأقطارها، وأخذوا خلقاً كثيراً من أهلها، واختطفوا في الأجفان بعض أطفالها، وضيقوا بها غاية التضييق، ورموا الحجارة بالمنجنيق، وعدموا المرافق كلها قليلها وجليلها، إلا ما كان في بعض ديار الأغنياء فإنهم كانوا يحتاطون في تلك الأمور، مثل الفقيه القاضي ابن منظور فإنه كان يطمع في إقلاع النصارى عن المدينة فيأمر الناس بالقتال والرمي بالنبال، والناس مع ذلك حيارى، يمشون سكارى وما هم بسكارى، ومات بالجوع خلق كثير، وعدمت الأطعمة من القمح والشعير، وأكل الناس الجلود، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود، ولما انتهى بإشبيلية شدة الحصار، وعدموا الأنصار من الأمصار، وصاروا قبضة في يد أعداء الله الكفار، خاطبوا أمير المؤمنين المعتضد بالله السعيد، وكافة المسلمين من أهل عدوة الغرب يستصرخونهم، ويعرفونهم بما نالهم من الجهد العظيم، والكرب الشديد الأليم، ويرغبونهم في نصرتهم، ويحضونهم على جهاد أعداء الله الكافرين».

استسلمت أشبيلية ودخل «فرناندو» القصر بعد شهر من استسلامها وأمر بتحويل مسجدها إلى كنيسة، وكانت شروط الاستسلام تقضي بأن يترك للإشبيلين فرصة شهر لمغادرتها مع ما يحملونه من أمتعة، وكان عدد من غادرها نحو أربعمائة ألف اتجهوا إلى مناطق متفرقه، وانتهى الوجود الإسلامي بها بعد أن عاشت في ظله نحو خمسمائة وثلاثين عاماً.

وواصل فرناندو استيلاءه على المدن الصغيرة الأخرى بعد سقوط إشبيلية، وهكذا تم له ما أراد، وقد ساعده في ذلك ابن الأحمر حاكم غرناطة، تنفيذاً لاتفاق فرض عليه فامتثل له خشية زوال سلطانه.

مأساة حقيقية لحقت بالأندلسيين والإسلام من جرَّاء هذا المصير المؤلم لمدينة العلم والحضارة والقصور، والخمائل، فيالها من مأساة كان مصيرها المحتوم امتداداً لأخطاء متتالية، ومصالح متباينة.